تفسير كلّ آية بجملة

﴿٢٤٩﴾ فلمّا خرج بهم طالوت قال لهم: إنّ الله مختبركم بنَهَر تمرُّون عليه في طريقكم فلا تشربوا منه إلَّا غرفة، فمن شرب منه أكثر من ذلك فليس من جيشنا ولا من جمعنا لخروجه عن طاعة الله، ولن يصحبني إلَّا من لم يشرب منه أكثر من غرفة، فلم يصبروا على هذا الاختبار وشربوا منه كثيرًا إلَّا جماعة قليلة، فاصطحب هذه القلّة الصّابرة واجتاز بها النهر، فلمّا ظهرت لهم كثرة عدد عدوّهم قالوا: لن نستطيع اليوم قتال جالوت وجنوده لكثرتهم وقلّتنا. فقال نفر منهم- ثبّت الله قلوبهم لرجائهم في ثواب الله عند لقائه- لا تخافوا فكثيرًا ما انتصرت القلّة المؤمنة على الكثرة الكافرة، فاصبروا فإنّ نصر الله يكون للصّابرين.

﴿٢٥٠﴾ ولمّا تقدّم المؤمنون لقتال جالوت وجيشه، اتّجهوا إلى الله ضارعين داعين له أن يملأهم بالصّبر، ويقوّي عزائمهم ويثبّتهم في ميدان القتال، وأن ينصرهم على أعدائهم الكافرين.

﴿٢٥١﴾ فهزموا عدوّهم بإذن الله تعالى وقتل داود- وهو أحد جنود طالوت- جالوت قائد الكفّار، وأعطاه الله الحكم بعد طالوت والنبوّة والعلم النّافع وعلّمه ممّا يشاء، وسنّة الله أن ينصر الذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون، ولولا أنّ الله يسلّط جنوده على المفسدين لمحو فسادهم، ويسلّط الأشرار بعضهم على بعض، ما عمرت الأرض، ولكنّ الله دائم الإحسان والفضل على عباده.

﴿٢٥٢﴾ تلك القصّة من العبر التي نقصّها عليك بالصّدق، لتكون أسوة لك ودليلًا على صدق رسالتك، ولتعلم أنّنا سننصرك كما نصرنا من قبلك من الرّسل.

إثبات مُلْك طالوت واختباره الأتباع وانهزام الفئة الكثيرة أمام الفئة القليلة

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ .

المعنى العام

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لمّا طلبوا منه الحجّة على اصطفاء طالوت للملك ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ إنّ علامة مُلك طالوت عليكم، أن يردّ الله عليكم التّابوت الذي كان أخذ منكم، وهو صندوق من خشب الشّمشار[1] مموّه بالذّهب، طوله ثلاثة أذرع في سعة ذراعين ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فيه وقار وجلالة، تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب. وكانوا يقدّمونه أمامهم في الحروب فلا يفرّون، ويُنصرون على عدوّهم، وقيل: كان فيه صور الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمّد ﷺ. وقيل: كان فيه طست من ذهب غُسلت به قلوب الأنبياء عليهم السلام وهي السكينة، وفيه ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ وهي رضاض الألواح[2]، وعصا موسى، وثيابه، وعمامة هارون. ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: "جاءت الملائكة تحمل التّابوت بين السّماء والأرض، حتّى وضعته بين يدي طالوت والنّاس ينظرون، وقال السديّ: أصبح التّابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوّة شمعون وأطاعوا طالوت".[3]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ على صدقي فيما جئتكم به من النّبوّة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله واليوم الآخر.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

ولمّا اتّفقوا على ملك طالوت تجهّز للخروج، وقال: لا يخرج معه إلا الشّاب النّشيط الفارغ ليس وراءه علقة،

(١) خشب الشّمشار: نوع من أنواع الخشب القوي المتين يستخدم في التصميمات الفاخرة.
(٢) رضاض الألواح: الألواح المهمّشة.
(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره، عن ابن عبّاس، باب: سورة البقرة، الآية: ٢٤٩، ج١، ص٥٠٨.

فاجتمع ممّن اختار ثمانون ألفًا، وقيل: ثلاثون، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ فلمّا انفصل عن بلده بالجنود وساروا في البيداء- وكان وقت الحرّ والقيظ- عطشوا، وسألوا طالوت أن يُجري لهم نهرًا، فقال لهم بوحي، أو بإلهام، أو بأمر نبيّهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ أي مختبركم بنَهَر بسبب اقتراحكم، ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ كرعًا بلا واسطة، ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي ليس من جيشي، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ أي يذقه، ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ فإنّها تكفيه لنفسه ولفرسه. ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ أي كرعوا، وسقطوا على وجوههم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ نحو ثلاثمائة وأربعة عشر، على عدد أهل بدر، عَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: كُنَّا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ، نَتَحَدَّثُ: «أَنَّ عِدَّةَ أَصْحَابِ بَدْرٍ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ طَالُوتَ الَّذِينَ جَاوَزُوا مَعَهُ النَّهَرَ، وَلَمْ يُجَاوِزْ مَعَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ بِضْعَةَ عَشَرَ وَثَلاثَ مِائَةٍ"[1]. روي أنّ من اقتصر على الغرفة كفته لشربه ودوابّه، ومن لم يقتصر غلب عطشه، واسودّت شفته ولم يقدر أن يمضي. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: " شربوا على قدر يقينهم، فشرب الكفّار شرب الهيم، وشرب العاصون دون ذلك، وانصرف من القوم ستّة وسبعون ألفًا وبقي بعض المؤمنين لم يشربوا شيئًا وأخذ بعضهم الغرفة، فأمّا من شرب فلم يرو، بل برح به العطش، وأمّا من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد ممّن أخذ الغرفة".[2]

وحكمة هذا الامتحان: ليتخلّص للجهاد المطيعون المخلصون، إذ لا يقع النّصر إلا بهم، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ فلمّا جاوز النّهر طالوت ومن بقي معه ممّن لم يشرب، قال بعضهم لبعض: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ استقلّوا أنفسهم عن لقاء عدوّهم لكثرتهم وقلّة عددهم، فشجّعهم علماؤهم العالمون بأنّ وعد الله حقّ، فإنّ النّصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عُدد، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ﴾ وقال الذين يتيقّنون بلقاء الله، ويتوقّعون ثواب الشّهادة، وهم الخُلّص من أهل البصيرة: لا تفزعوا من كثرة عددهم ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وإرادته ومعونته، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنّصر والمعونة.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أي ظهر طالوت بمن معه لجالوت في البراز، ودنا بعضهم من بعض، تضرّعوا إلى الله واستنصروه ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي أصببه علينا صبًّا ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ عند اللقاء لئلّا نفرّ، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. وفي دعائهم ترتيب بليغ سألوا أوّلًا إفراغ الصّبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثمّ ثبات القدم في مداحض الحرب المسبّب عنه، ثمّ النصر على العدوّ المرتّب عليها غالبًا. فهزم الله عدوّهم ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وأجاب دعاءهم فغلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم وقدرته، ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ فآل الملك إلى داود عليه السلام، مع ما منحه الله به من النبوّة العظيمة. وكان جالوت أمير العمالقة وملكهم، وكان فيما روي في ثلاثمائة ألف فارس.

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن البراء، حديث رقم: ٣٩٥٨، كتاب: المغازي، باب: عدّة أصحاب بدر.
(٢) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره، عن ابن عبّاس، ج١١، ص١٥٧.

وروي في **قصّة داود وقتله جالوت**، " أنّ أصحاب طالوت كان فيهم إخوة داود وهم بنو إيشى، وكان داود صغيرًا يرعى غنمًا لأبيه، فلمّا حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبنّ لرؤية هذه الحرب، فلمّا نهض مرّ في طريقه بحجر فناداه: يا داود، خذني فبي تقتل جالوت، ثمّ ناداه حجر آخر، ثمّ آخر، ثمّ آخر فأخذها وجعلها في مخلّاته وسار، فلمّا حضر النّاس، خرج جالوت يطلب مبارزًا فكعّ النّاس عنه، حتّى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأنا أزوّجه بنتي وأحكّمه في مالي، فجاء داود، فقال: أنا أبرز له وأقتله، فقال له طالوت: فاركب فرسي، وخذ سلاحي، ففعل، وخرج في أحسن شكة فلمّا مشى قليلًا رجع. فقال النّاس: جبن الفتى، فقال داود: إنّ الله إن لم يقتله لي ويُعنّي عليه لم ينفعني هذا الفرس ولا هذا السّلاح، ولكنّي أحبّ أن أقاتله على عادتي.

قال: وكان داود من أرمى النّاس بالمقلاع، فنزل وأخذ مخلّاته فتقلّدها وأخذ مقلاعه، وخرج إلى جالوت وهو شاكّ في سلاحه، فقال له جالوت: أنت يا فتى تخرج إليّ، قال: نعم. قال: هكذا كما يخرج إلى الكلب. قال: نعم وأنت أهون. قال: لأطعمنّ اليوم لحمك الطّير والسّباع، ثمّ تدانيا فأدار داود مقلاعه، وأدخل يده إلى الحجارة، فروي أنّها التأمت فصارت حجرًا واحدًا فأخذه فوضعه في المقلاع وسمّى الله وأداره ورماه فأصاب به رأس جالوت فقتله، وحزّ رأسه وجعله في مخلّاته واختلط النّاس وحمل أصحاب طالوت وكانت الهزيمة.

ثمّ إنّ داود جاء يطلب شرطه من طالوت، فقال له: إنّ بنات الملوك لهنّ غرائب من المهر، ولا بدّ لك من قتل مائتين من هؤلاء الجراجمة[1] الذين يؤذون النّاس، وتجيئني بغلفهم... فقتل داود منهم مائتين، وجاء بذلك وطلب امرأته فدفعها إليه طالوت، وعظم أمر داود، فيروى أنّ طالوت تخلّى له عن الملك وصار هو الملك".[2]

قال تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الذي كان بيد طالوت، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ وهي النّبوّة، وقيل: صنعة الدّروع ومنطق الطّير، ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ من أنواع العلوم والمعارف والأسرار، وقد دفع الله بأس الكافرين وردّ كيدهم في نحرهم، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي فلولا أنّ الله يدفع بعض النّاس ببعض، فينصر المسلمين على الكافرين، ويكفّ فسادهم، كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود، لغلبوا وأفسدوا في الأرض. أو: لولا أنّ الله نصّب السّلطان، وأقام الحكّام لينصفوا المظلوم من الظّالم، ويردّوا القويّ عن الضّعيف، لتواثب الخلق بعضهم على بعض، وأكل القويّ الضّعيف فيفسد النّظام. أو: لولا أنّ الله يدفع بالشّهود عن النّاس في حفظ الأموال والنّفوس والدّماء والأعراض، لوقع الفساد في الأرض. أو: لولا أنّ الله يدفع بأهل الطّاعة والإحسان عن أهل الغفلة والعصيان، لفسدت الأرض بشؤم أهل العصيان. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿لَوْلَا شَبَابٌ خُشَّعٌ، وَشُيُوخٌ رُكَّعٌ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ، لَصَبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابَ صَبًّا﴾[3] وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ، قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَيُصْلِحُ بِصَلَاحِ الْعَبْدِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ وَأَهْلَ دُوَيْرَتِهِ وَأَهْلَ الدُّوَيْرَاتِ حَوْلَهُ، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظٍ مِنَ اللَّهِ مَا دَامَ بَيْنَهُمْ﴾[4]. فهذا من فضل الله على عباده يصلح طالحهم بصالحهم، ويشفّع خيارهم في شرارهم، ولولا ذلك لعوجلوا بالهلاك، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

(١) الجراجمة: أحفادهم جماعة مسيحيّة فارسيّة أو أرمنيّة كانت تقطن في الثغور بين البيزنطيّين والدّولة الأمويّة.
(٢) ذكره ابن عطيّة في المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، باب: سورة البقرة، الآية: ٢٥٠-٢٥١، ج١، ص٣٣٧.
(٣) رواه أبو يعلى في مسنده، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٦٤٠٢، مسند: أبي هريرة، باب: شهر بن حوشب، عن أبي هريرة.
(٤) رواه ابن أبي شيبة في مصنّفه، عن محمّد بن المنكدر، حديث رقم: ٣٦٥٦٤، مج: ١٩، ج١٩، ص٤٢٤.

﴿تِلْكَ﴾ يا محمّد، ﴿آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما قصّ من حديث الألوف، وتمليك طالوت، وإتيان التّابوت، وانهزام الجبابرة أصحاب جالوت، ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ نقصّها عليك بالوجه المطابق الذي لا يشك فيه أهل الكتاب وأرباب التّواريخ، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ حيث أُخبرت بها من غير تعرّف ولا استماع، ولم يُعهد منك تعلّم ولا اطّلاع، فلا يشكّ أنّه من عند الخبير العليم، إلا من طبع الله على قلبه.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

من هدي الآيات:

١. الجهاد الشّرعيّ يشترط له الإمام المبايع بيعة شرعيّة ولا يكون بشكل إفرادي، لأنّ ذلك قد يكون ضرره أكثر من نفعه.
يشترط للولاية الكفاءة، وأهمّ خصائصها: العلم وسلامة العقل والبدن.

٢. جواز التبرّك بآثار الأنبياء، كعمامة النّبيّ أو ثوبه أو نعله مثلًا.

٣. المطلوب اختبار أفراد الجيش لمعرفة مدى استعدادهم للقتال، والصّبر عليه ومدى صلاحهم وتقواهم، فإنّ الله ينصرنا بالتّقوى.

٤. فضيلة الإيمان بلقاء الله والثّقة به وحسن التوكّل عليه، وفضيلة الصّبر على طاعة الله، خاصّة في الجهاد في سبيل الله وعند كلّ بلاء.

٥. بيان الحكمة في مشروعيّة الجهاد، وهي دفع أهل الكفر والظّلم بأهل الإيمان والعدل، لتنتظم الحياة ويعمر الكون.

٦. ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[١] أي: في الدّنيا، بأن يسلّطوا عليهم استيلاء استئصال بالكليّة، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض النّاس، فإنّ العاقبة للمتّقين في الدّنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[٢] لو تظاهر الخلْق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء، ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بتشاغلهم شرّهم عن قوم. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣]

٧. إنّ الله تعالى جعل سكينة بني إسرائيل في التّابوت الذين رَضوا عن الألواح، وعصا موسى عليه السلام، وآثار صاحب نبوّتهم. وجعل سكينة هذه الأمّة في قلوبهم، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[٤] ثمّ إنّ التّابوت كانت تتداوله أيدي الأعداء وغيرهم؛ فَمرّةً كان يُدْفَن ومرّة كان يُغلب عليه فيُحمَل، ومرّة يُرَدّ ومرّة ومرّة... وأمّا قلوب المؤمنين فَحَالَ بين أربابها وبينها، ولم يستودعها ملكًا ولا نبيًّا، ولا سماء ولا هواء، ولا مكانًا ولا شخصًا، قال ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»[٥] يعني في قبضة الحقّ سبحانه، وتحت تغليبه وتصريفه، والمراد منه "القدرة"، وشتّان بين أمّة سكينتهم فيما للأعداء عليه تَسَلُّط، وأمةٍ سكينتهم فيما ليس لمخلوق عليه سلطان.

(١) سورة النساء، الآية: ١٤١. (٢) سورة غافر، الآيتان: ٥١ - ٥٢. (٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥١. (٤) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٥) رواه مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، حديث رقم: ٢٦٥٤، كتاب: القدر، باب: تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء.

٨. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ﴾[١]. الإشارة من هذه الآية أنّ الله سبحانه ابتلى الخَلْق بصحبة الخلْق وبالدّنيا وبالنَّفس، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدِّ الاضطرار بمقدار القوام، وما لا بدّ منه نجا وسَلِمَ.

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قد صَالَحَ أَهْلَ البَحْرَيْنِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمُ العَلاءَ بْنَ الحَضْرَمِيِّ، فَقَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ البَحْرَيْنِ، فَسَمِعَتِ الأَنْصَارُ بِقُدُومِهِ، فَوَافَتْهُ صَلاةَ الصُّبْحِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَلَمَّا انْصَرَفَ تَعَرَّضُوا لَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ رَآهُمْ، وَقَالَ: «أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ بِقُدُومِ أَبِي عُبَيْدَةَ، وَأَنَّهُ جَاءَ بِشَيْءٍ؟» قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَالله مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ»[٢].

٩. ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[٣]. كذلك الخواصّ في كلّ وقت يقلّ عددهم ولكن يجلّ قدرهم.

١٠. كان أهمّ أمورهم الصّبر والوقوف للعدوّ، ثمّ بعده النّصرة عليهم فإنّ الصّبر حقّ الحقّ، والنّصرة نصيبهم، فقدّموا تحقيق حقّه ﷻ وتوفيقه لهم، ثمّ وجود حظّهم من النّصرة، ثمّ أشاروا إلى أنّهم يطلبون النّصرة عليهم- لا للانتقام منهم لأجْل ما فاتهم من نصيبهم- ولكن لكونهم كافرين، أعداء الله. فقاموا بكلّ وجهٍ لله بالله؛ فلذلك نُصِرُوا وَوَجدوا الظّفر.

١١. هيّب الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة في الجسم، ولكن عند القتال جعل الظّفر على يدَيْ داود. وكان كما في القصّة رَبْعَ القامة غير عظيم الجثّة، مختصر الشّخص، ولم يكن معه من السّلاح إلا المقلاع، ولكنّ الظّفر كان له لأنّ نصرة الله سبحانه كانت معه.

١٢. وهذا الأثر قد تناقلته كتب التّاريخ والأخبار في رسائل مختلفة، وألفاظ متقاربة عن عمر ﷺ إلى ولاته، وقادة جيوشه، أنّ عمر كتب في رسالة طويلة إِلَى سعد بن أبي وَقاص ﷺ وَمن مَعَه من الأجناد ﷺ: " أمّا بعد فَإِنِّي آمُرك وَمن مَعَك بتقوى الله على كلّ حَال، فَإِنّ تقوى الله أفضل الْعدّة على الْعَدوّ وَأقوى المكيدة فِي الْحَرْب. وآمرك وَمن مَعَك أَن تَكُونُوا أَشدّ احتراسًا من الْمعاصِي من احتراسكم من عَدوّكُمْ، فَإِنّ ذنُوب الْجَيْش أخوف عَلَيْهِم من عدوّهم، وَإِنَّمَا ينصر الْمُسلمُونَ على عدوّهم بِمَعْصِيَة عدوّهم الله، وَلَوْلَا ذَاك لم يكن لنا بهم قُوَّة لِأَنّ عددنا لَيْسَ كعددهم، وَلَا عدّتنا كعدّتهم، فَإِن استوينا فِي الْمعْصِيَة كَانَ لَهُم الْفضل علينا وَالْقُوَّة، وَإِن لم نُنصر عَلَيْهِم بفضلنا لا نغلبهم بقوّتنا" [٤]..

حال بني إسرائيل منذ وفاة موسى عليه السلام حتى قيام ملك داود عليه السلام :

جمع طالوت صفوف بني إسرائيل، وهيّأهم لمحاربة عدوّهم، وخرج بهم، ثمّ اصطفى منهم خلاصة للقتال، يقارب عددها عدد المسلمين في غزوة بدر. قالوا: وكان عددهم نحوًا من (٣١٣) مقاتل، وذلك بطريقة قصّها القرآن الكريم علينا، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[٥].

وهؤلاء القلّة هم الذين اصطفاهم طالوت للقتال بعد رحلة بريّة شاقّة سار بهم فيها، وقد اشتدّ فيهم ظمأ القوم، وبهذه القلّة جاوز طالوت النّهر...

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن عمرو بن عوف، حديث رقم: ٦٤٢٥، كتاب: الرقاق، باب: ما يحذّر من زهرة الدنيا والتنافس فيها.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
(٤) ذكره ابن الأزرق الأصبحيّ في بدائع السلك في طبائع الملك، ج٢، ٦٢.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

وأقبل داود على جالوت وجرت بينهما مكالمة عن بعد، وأظهر جالوت احتقار الفتى وازدراءه، والعفّة عن مبارزته لصغر سنّه، لكنّ داود أخذ مقلاعه - وكان ماهرًا به - وزوّده بحجر من أحجاره، ورمى به فثبت الحجر في جبهة جالوت الجبّار فطرحه أرضًا، ثمّ أقبل إليه وأخذ سيفه وفصل به رأسه، وتمّت الهزيمة لجنود جالوت بإذن الله!

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾[1].

ووفّى طالوت لداود بالوعد، فزوّجه ابنته (ميكال) وأغناه.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[2].

يخبر الله تعالى عباده عمّا هو الحقّ ويعرّفهم بآياته الأمر الحقّ، فيجب على العباد أن يعتقدوا أنّ جميع ما شرعه الله تعالى من الأوامر والمناهي، ومن الحلال والحرام، كلّ ذلك حقّ وعدل فيه سعادة الدّنيا والآخرة، لم يظلم عباده فيما شرعه لهم، وأمرهم به أو نهاهم عنه، ولم يظلمهم فيما حرّم عليهم أو أحلّ لهم، ولا يريد أن يظلمهم في ذلك ولا في غير ذلك، فأحكامه القضائيّة القدريّة كلّها حقّ لا ظلم ولا حيف، وأحكامه التّشريعيّة كلّها حقّ لا ظلم فيها ولا حيف، ولكنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون.

في الأمر والنّهي

العمل بالآيات:

- اِقرأ قصّة طالوت، وقارن ما حدث في ذلك الزّمان وما يحدث الآن، ثمّ استخرج منها ثلاث فوائد، ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾.
- أكثر من الدّعاء بالثّبات، ثمّ درّب نفسك اليوم بترك محبوب مباح من العادات؛ حتّى لا تنهزم عند الابتلاء، ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

في الأخلاق والآداب

التوجيهات:

- إنّ طول التّفكير في الآخرة يورث الثّبات واليقين بالله وبنصره، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

من الأخلاق المُحمَّديّة: الشّجاعة والنّخوة والمروءة

هذا الخُلُقُ مُستَمَدٌّ من أسماءِ الله تعالى **"القوّي النّاصر المُعين"**.

والتّعلّقُ باسم الله "**القويّ**" يكونُ باستمدادِ قوّتِهِ بتحقّقِ ضعفِك، والتّذكّر أنّ الأجلَ مكتوبٌ والرّزقُ مكتوبٌ، وأنّ ما أصابَكَ لم يكن لِيُخطِئَك، وما أخطأك لم يَكُن لِيُصيبَك. والتّخلُّقُ باسم الله "**القويّ**" هو أن تكون قويًّا شُجاعًا، تُغيثُ الملهوفَ، وتساعدُ المحتاجَ، وتصدعُ بالحقِّ، وتُبادِر بالإصلاحِ، ولا تخشى في الله لومَةَ لائِم. والتّخلّقُ باسمَي الله تعالى

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١. (٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٢.

"النّاصِر المُعين" هو بأن تنصرَ مَن استنصرَك، وتُعينَ مَن استعانَ بكَ، وتجيرَ مَن استجارَ بكَ، فتكونَ شجاعًا كريمًا ذا نخوةٍ وَمُروءَةٍ.

فإذا كنت في مأزِق أو عندك مشكلة أو وقعَتْ مُصيبةٌ في حياتِك... من تراه قادمًا على الفور؟ من يقف إلى جانبك في تلك المواقف؟ من يبادر ويترك ما بيده ليسارع إلى إنقاذك؟ فقط من كان عنده نخوة!

المروءةُ هي ما تبذُلُه لِفعلِ الخيرِ، وكفِّ الأذى.

والنّخوَةُ هي أن تبادِرَ في تقديمِ المساعدةِ دون طلبِها فتتحمّل المخاطِرَ عن الآخرين، وتدافِع عنهم، وتُبعِد عنهم شبحَ المخاوِف.

والشّجاعَةُ هي أن تتصرّفَ بشكلٍ صحيحٍ تجاهَ أيّ موقفٍ يُواجِهُك دون خوفٍ أو تردّدٍ، فتصنعَ مِنَ اليأسِ أملًا، لأنّ اليأسَ فيه طعمُ الموتِ وَلِلشّجاعَةِ فيها مَذاقُ الحياة. عن أنس ﷺ قال: "**كان رسولُ الله ﷺ أحسَنَ النّاس، وأجودَ النّاس، وأشجَعَ النّاس...**"[1].

فَالرُّجولةُ هي كلمةُ حقٍ وموقِفُ حقٍ في نُصرَةِ المظلوم على الظّالم، وابتغاءُ وجهِ الله في كلّ قولٍ أو فِعلٍ. هي الأخلاقُ الكريمةُ والمُعاملةُ الحسنةُ؛ هي الشّهامةُ عند حاجتِها والشّجاعةُ في وقتِها، وأن تكون مستعدًّا للتّضحيةِ في سبيلِ ما تُؤمِنُ بِهِ. والرُّجولةُ لَيْسَتْ للذّكورِ فقط، فالرّجولةُ مَوقِفٌ، والكَثيرُ مِنَ النِّساءِ يَتَحَمَّلْنَ ما يتحمّلُه الرِّجال ولكن عليهنّ ألّا يَتشبّهْنَ بمظهرهنّ بالذّكور، وإلّا ضاعَت أنوثتُهنّ ورقّتُهنّ.

فأين نحن مِنْ هَذِهِ الصّفات العظيمة للدّفاع عَنِ المظلومِ أو المكروبِ أو الضّعيف؟

لَيْسَتِ الرُّجولةُ في الكلامِ المُنمّقِ، وليست في العضلاتِ المفتولةِ. إنّما الرُّجولةُ تتمثّلُ في قدرة الرَّجلِ على احتواءِ المرأةِ في لحظةِ ضَعفِها، فيكونَ لها ذاك الجبلَ الشّامخَ الّذي يبقى صامدًا إذا ما هي انكسرَت وانهالَت دموعُها، ويكون السّنَدَ والمعينَ ليدعمَها في ضَعفِها، وينصحَها في خطئِها، ويكون فخورًا بإنجازاتِها أمامَ الجميع. قال رسولُ الله ﷺ: ﴿وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا﴾[2]. تقرّب إلى الله بالإحسان لهنّ فلا يكرمهنّ إلّا كريم ولا يهينهنّ إلّا لئيم.

إذا انتشرَتِ الشّهامةُ والمروءةُ والرُّجولةُ في المجتمعِ فقد انتشرَ الأمنُ وحُفِظت الأعراضُ وتمّت نَجدةُ الملهوفِ وإغاثة المَنكوبِ... أمّا الّذي يمنعُ الإنسانَ من اكتسابِ هذه الصّفات فهي الأنانيّةُ وقسوةُ القلبِ وتفضيلُ الرّاحةِ الذّاتيّةِ والمصلحةِ الشّخصيّةِ على مشاركةِ الآخرينَ آلامَهم وآمالَهم. وما يُساعِدُ على اكتسابِها الإيمانُ بالقَدَرِ عَبر استشعارِ الآية: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا...﴾[3].

وما يُساعِدُ على اكتساب الإيمان أيضًا مُصاحبةُ ذَوي الشَّهامَةِ والنَّخوَةِ وسماعُ أخبارِهم وقِصَصِهم لكي نَقتَدِيَ بِهِم.

(١) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أنس بن مالك، رقم الحديث:٣٠٤٠، كتاب: الجهاد والسّير، باب: إذا فزعوا باللّيل.
(٢) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، حديث رقم: ٥١٨٦، كتاب: النكاح، باب: الوصاة بالنّساء.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٥١.

قصّة من حياة النّبيّ ﷺ: الإراشي والنخوة

قصّة تُثبِتُ كم أنَّ النَّخوةَ والمروءةَ لا تتأثّران في حالِ قيامِ العداوةِ بين النّاس، فهما من القِيَمِ الثّابتَةِ في النّفوس.

إنّ "أبا جهل بن هشام" اشترى مِن شخصٍ يقال له "الإراشي" عدّة جِمالٍ فَماطَلَهُ بِدَفعِ ثَمَنِها (وكلّما طالبه تَهَرَّب منه). وَبعد أن نفذ صبرُ الرّجلِ، جاءَ إلى نادٍ يجلسُ فيه زُعَماءُ قريش مِنَ الكفّار فقال: "يا معشرَ قريش، من رجل يُعينني على "أبي الحكم بن هشام" فإنّي غريب وابن سبيل وقد غَلَبَني على حقّي." فقالوا له: "أترى ذلك الرّجل؟ (يعنون رسول الله ﷺ)، اذهَب إليه فهو يُعينُك عليه". (فَدَلَّهُ كفّار قريش على النّبيّ ﷺ لِيُنصِفَهُ من "أبي جهل"، استهزاءً برسولِ الله ﷺ وَلِعِلمِهِم بأنَّ "أبا جهل" يكرَهُه كثيرا وأنّه يَستحيلُ أن يُعطيَه طلبَهُ بل سيَهزأُ بِهِ وَيُؤذيه). فجاءَ إلى رسولِ الله ﷺ وَذَكَرَ له حالَهُ مع "أبي جهل"، وقال له: "يا "أبا عبد الله"، إنّ "أبا الحكم بن هشام" غَلَبَني على حقّ لي قبله وأنا غريب وابن سبيل، وقد سألتُ هؤلاءِ القوم عن رجلٍ يأخُذُ لي بحقّي منه فأشاروا إليكَ فخُذْ حقّي منه يرحمك الله." (وكان ﷺ أشجعَ النّاسِ وأكثرَ النّاس شهامَةً ومروءَةً، يُغيثُ الملهوفَ وَيُعينُ على نوائِبِ الدّهرِ، وَيَعلَمُ مدى كُرهِ "أبي جهل" له. ولكنَّهُ لَم يُبالِ وآثَرَ نصرةَ الملهوفِ فَتَوَكَّلَ على الله). خَرَجَ النّبيّ ﷺ معَ الرّجلِ إلى "أبي جهل" وضَرَبَ عليه بابَه، فقال: "من هذا؟" قال ﷺ: "محمّد". فخَرَجَ إليه وقد اصفرَّ لونُهُ أي تغيَّرَ. فقال له ﷺ: "أعطِ هذا حَقَّه". قال: "نعم، نعم... لا تبرحْ حتّى أُعطيَه الّذي له." فأعطاهُ كامِلَ حَقّه. فسُرَّ الرّجلُ وأقبَلَ حتّى وَقَفَ على ذلك المجلِسِ مِن كفّار قريش فقال: "جزاه الله خيرًا" (يعني النّبيّ ﷺ) فقد والله أخَذَ لي بحقّي". فَتَفاجَأَ الجميعُ! وكان كفّارُ قريش قد أرسلوا رَجُلًا ممَّن كان معهم خلفَ النّبيّ ﷺ وقالوا له: "انظر ماذا يصنع" (حتّى يَروي لهم كيف سيؤذي "أبو جهل" رسولَ الله ﷺ فَيضحكوا ويهزؤا). فقالوا لذلك الرّجلِ: "ماذا رأيت؟" قال: "رأيتُ عجبًا مِنَ العَجَبِ، والله ما هو إلّا أن ضَرَبَ ﷺ عليه بابَهُ، فخَرَجَ إليه، فقالَ: أعطِ هذا حقّه. فقالَ: نعم، لا تبرحْ حتّى أخرج إليه حقّه، فدَخَلَ فخَرَجَ إليه بحقّه فأعطاه إليه". عند ذلك، قال كفّارُ قريش لـ"أبي جهل": "ويلك، ما رأينا مثل ما صنعت؟" قال: "وَيحَكُم، والله ما هو إلّا أن ضَرَبَ عليَّ بابي وسمعتُ صوتَهُ فمُلِئْتُ رُعبًا ثمّ خَرَجتُ إليه فرأيتُ فوق رأسي فحلًا مِنَ الإبلِ ما رأيتُ مثلَه قطّ، فشعرتُ أنّني لو امتَنَعْتُ أو تأخَّرْتُ لأَكَلَني!" (أي أراه الله تعالى ذلكَ فارتَعَبَ وَأعطى الرَّجُلَ حقّه).

قصّة من قصص الأنبياء: سيّدنا موسى والمرأتين

وهذا سيّدُنا موسى عليه السلام لما وجدَ امرأتَيْنِ تُريدان أن تَستقيا مِنَ البئر وعليها ازدحامٌ مِنَ الرّجال، أخذته النّخوة وقامَ فسقى لهما (أي استخرجَ الماءَ مِنَ البئرِ لهما)، كما قال تعالى: ﴿وَلَمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النّاسِ يَسْقونَ وَوَجَدَ مِن دونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقي حَتّىٰ يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبونا شَيْخٌ كَبيرٌ * فَسَقىٰ لَهُما ثُمَّ تَوَلّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنّي لِما أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقيرٌ﴾[1].

(١) سورة القصص، الآيتان: ٢٣- ٢٤.

في السّلوك

الإشارة: من شأن غالب النّفوس ألا تقبل الخصوصيّة عند أحد حتّى تظهر علامتُها، ولذلك طالب الكفّارُ الرّسلَ بالمعجزات، وطالب العوامُ الأولياءَ بالكرامات، ويكفي في الوليّ استقامة ظاهره، وتحقيق اليقين في باطنه.

الإشارة: قال بعض الحكماء: الدّنيا كنهر طالوت، لا ينجو منها إلا من لم يشربْ أو اغترف غرفةً بيده، فمن أخذ منها قَدْرَ الضّرورةِ كَفَتْه، ونَشَطَ لعبادة مولاه، ومن أخذ فوق الحاجة حُبس في سجنها، وكان أسيرًا في يدها.

الإشارة: من علامة النّجاح في النّهايات الرّجوع إلى الله في البدايات، فإذا برز المريد لجهاد أعدائه من النّفس وَالهوى والشّيطان وسائر القُطّاع، واستنصر بالله وتبرّأ من حوله وقوّته، كان ذلك علامة على نصره وظفره بنفسه، وكان سببًا في نجاح نهايته، فيملّكه الله الوجود بأسره، ويفتح عليه من خزائن حكمته. قال أبو سليمان الدّاراني: **"إذا اعتادت النّفوس على ترك الآثام، جالت في الملكوت ثمّ عادت إلى صاحبها بطرائف الحكم من غير أن يؤدّي إليها عالم علمًا"**.

وفي الخبر: «من عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ الله علمَ مَا لم يعلمْ»، وكان حينئذٍ رحمة للعباد، يدفع الله بوجوده العذاب عمّن يستحقّه من عباده.

وفي الحديث القدسي: «يقول الله ﷻ: **«إِذَا كَانَ الْغَالِبَ عَلَى عَبْدِي الِاشْتِغَالُ بِي، جَعَلْتُ هِمَّتَهُ وَلَذَّتَهُ فِي ذِكْرِي، وَرَفَعْتُ الْحِجَابَ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ، لَا يَسْهُو إِذَا سَهَا النَّاسُ. أُولَئِكَ كَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ، أُولَئِكَ الْأَبْطَالُ حَقًّا، أُولَئِكَ الَّذِينَ إِذَا أَرَدْتُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ عُقُوبَةً أَوْ عَذَابًا ذَكَرْتُهُمْ فَصَرَفْتُهُ بِهِمْ عَنْهُمْ»**»[1].

في الإعجاز العلميّ

في أشراط السّاعة

من علامات السّاعة: تكالب أمم الكفر على هذه الأمّة؛ ففي الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»** فقال قائل: ومن قلّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: **«بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»**. فقال قائلٌ: يا رسُولَ الله، وما الوهنُ؟ قال: **«حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»**[2].

تابوت السّكينة وأشراط السّاعة:

بعد انقضاء الفترة التي أقامها بنو إسرائيل في التّيه - وهي (٤٠) سنة - وبعد وفاة هارون وموسى عليهما السلام، تولّى أمر بني إسرائيل نبيّ من أنبيائهم اسمه يوشع بن نون عليه السلام فدخل بهم بلاد فلسطين، وقسّم لهم الأرضين. وكان لهم تابوت «صندوق» يسمّونه تابوت الميثاق أو «تابوت العهد» فيه ألواح موسى وعصاه ونحو ذلك، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾[3].

وهذا التّابوت سيظهر في آخر الزّمان، وله علاقة بأشراط السّاعة.

---

(١) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد، باب: سورة البقرة، الآيات: ٢٥٠-٢٥٢، ج١، ص٢٨١.
(٢) رواه أبو داود في سننه، عن ثوبان، حديث رقم: ٤٢٩٧، كتاب: الملاحم، باب: في تداعي الأمم في الإسلام، الحديث حسن.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.

في الأدعية والأذكار

أُدع بهذا الدّعاء لنفسك ولكلّ المسلمين المجاهدين في كلّ مكان، وانصح به أهل الابتلاء، فالله سبحانه هو الذي يفرغ الصّبر، ويثبّت الأقدام، وينصر عباده على أهل الظّلم والكفر والطّغيان ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[١].

آياتُ السَّكينَةِ: يقولُ ابنُ القَيِّمِ ﷺ: "قَدْ جَرَّبْتُ قِراءَةَ هَذهِ الآياتِ عِنْدَ اضْطِرابِ القَلْبِ ممّا يَرِدُ عَلَيْهِ، فَرَأَيْتُ لَها تَأْثيرًا عَظيمًا في سُكونِهِ وطُمَأْنينَتِهِ". ويقولُ ابنُ القَيِّمِ أيضًا في شَرْحِ مَنْزِلَةِ "السَّكينَةِ" مِن مَنازِلِ السّالِكينَ إلى الله :هذِهِ المَنْزِلَةُ مِنْ مَنازِلِ المَواهِبِ، لا مِنْ مَنازِلِ المَكاسِبِ، وقَدْ ذَكَرَ اللهُ سُبْحانَهُ السَّكينَةَ في كِتابِهِ في سِتَّةِ مَواضِع :

- قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[٢].
- قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].
- قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾[٤].
- قولُهُ تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٥].
- قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾[٦].
- قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٨.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الفتح، الآية: ١٨.
(٦) سورة الفتح، الآية: ٤.
(٧) سورة الفتح، الآية: ٢٦.